# الحديث ذو شجون

## للدكتور زكي مبارك

**الى الأستاذ إبرهيم المازني**

صديقي

حدثتنا مجلة آخر ساعة أنك سُئلت عني فأجبت « لو أخلى زكي مبارك كتابته من الحديث عن زكي مبارك لكان أحسن مما هو الآن »

وبمثل هذا أجاب الأستاذ عباس العقاد حين سألته عني مجلة الإثنين ، فكيف تمّ التوافق بينك وبين صديقك فيما كتبتما عني ؟

أهو من باب توارد الخواطر ، ووقوع الحافر على الحافر ، كما كان يقال ؟ أم هو موصول بقصة المسيو ديبون ؟ ... ومن ديبون ؟

هو رجلٌ فرنسيٌ صنع شراباً سماه باسمه وأعلن عنه في جميع البقاع الفرنسية ، فما تسير في شارع ولا تدخل قهوة ولا تركب قطاراً إلا وجدت اسمه مسطوراً بأحرف كبيرة تبهر العيون . ولم يكتف بذلك ، بل وضع لوحة مسجوعة بهذا الوضع الطريف :

Chez Dupont, tout est bon !

وقد هالني هذا الإسراف في الإعلان فسألت صديقاً فرنسيًا عن السرّ فيه فأجاب :

ذلك رجلٌ نفسانيٌ Psychologue هو يعرف العادة المتبعة في القهوات الفرنسية ، العادة التي توجب أن يسألك غلام القهوة عما تطلب قبل أن تجلس ، فتنطق بأكثر الأسماء ورودا على بالك وهو ديبون !

والأمر كذلك فيما يتصل بحياتي الأدبية ، فقد قال الدكتور طه حسين مرة : إنني أكثر أدب زكي مبارك في الحديث عن زكي مبارك . فلما سُئل الأستاذ العقاد عني وجد هذه العبارة في باله فأجاب . ولما سئل الأستاذ المازني عني وجدها في باله فأجاب

وكذلك تعاد قصة المسيو ديبون في القاهرة بعد أن سئمها الناس في باريس

وهنا مشكلة لا أكتمها عنك ، وهي الخوف منك ، ولكن كيف ؟

أنا لا أبالي نقد الدكتور طه حسين إياي ، لأنني نقدته بمئة مقالة ومقالة ، فمن السهل أن يقول الناس إنه ينتقدني وفي نفسه أشياء

وأنا لا أبالي نقد الأستاذ العقاد إياي ، لأن بيننا أحقاداً تُنشر في حين وتُطوى في أحايين

الخوف كله من نقدك ، لأنك صديق حميم ، ولن أجد من يتهمك بالتحامل حتى أطمع في أن يكذّب الناس ما تقوله عني

يضاف إلى هذا أنك مسموع الكلمة ، وأن الجمهور لا يفطن إلى قدرتك على قلب الحقائق . وهل أنسى ما صنعت بنفسك وبصديقك العقاد ؟

كانت العيون ترى قبل عشرين سنة أنك طويلٌ جدًّا ، وأن العقاد قصيرٌ جدًّا ، فشاء برُّك بصديقك أن تزعم أنك القصير وأنه الطويل ، وما زلت تُبدئ وتعيد حتى آمن الناس بقولك وظنوا أنك قزم وأن العقاد عملاق !

وبنو آدم يصدقون مايسمعون وما يقرأون ، قبل أن يصدقوا ما تحدثهم به العيون والقلوب

من أجل هذا أنقض حكمك عليّ ، وأرجو أن تكف عني شرّك وإن لم تكففه عن نفسك ، فما بي حاجة إلى صديق يسير على طريقة المسيو ديبون

وماذا تنكر من حديثي عن نفسي ؟ وماذا ينكر صديقك العقاد ؟ وماذا ينكر الدكتور طه حسين ؟

هل كان أدبك يا صديقي المازني إلا دوراناً حول نفسك ؟ وهل كتب الأستاذ العقاد مقالاً أقوى من مقاله الأخير في مجلة الرسالة عن الأزمة التي صاولت روحه يوم احتلال العلمين ؟ وهل كتب الدكتور طه أقوى مما كتب في الحديث عن طفولته وصباه ؟

إن تصوير هموم النفس وما يحيط بها من مخاوف وآمال هو أوب صحيح جعلته الكتب السماوية من شمائل الأنبياء ، فما العيب في أن يكون الحديث عن النفس من خصائص أدبي ؟

وهل يمكن أن أتعرّف إلى الوجود قبل أن أتعرّف إلى نفسي ؟

وهل كانت روائع الأدب فى جميع الأمم إلا أحاديث نفسية ؟

ما هو سِفر أيوب الذى تُرجم إلى أكثر اللغات ؟

ألم تكن أصالته فى التعبير عن المخاوف الروحية ؟

وهل كانت أكثر القصائد الخوالد إلا إفصاحا عن عواطف ذاتية ؟

— قال ديكارت : أنا أفكر ، فأنا إذاً موجود

Je pense, donc je suis

ومن معانى هـذه العبارة أن الشعور بالنفس هو أساس الشعور بالوجود

لا موجب للمداورة فى محاورتك ، فأنت لم تنكر علىّ الحديث عن النفس بمدلوله المعروف عند رجال الأدب ، ولا كان هـذا ما أنكره الدكتور طه والأستاذ العقاد ، وإنما تنكرون الثناء على النفس ، وهذا يقع من حين إلى حين ، والثناء على النفس يضايق الناس حين يكون ثناء بالحق ، وإلا فمن الذى استطاع أن يكذّ بنى حين أثنيت على نفسى ؟ —

ولكن هل جال فى خاطرك أن تبحث عن السرّ في هذه النزعة النفسية ؟

هل حاولت إدراك الأسباب للتكبر الذى أقع فيه كارهاً غير طائع ؟

لو أنك فعلت لعرفت أنى لا أتكبر إلا متحدّياً ، والتحدى نزعة طبيعية تطوف بالنفس حين تفكر فى دفع الجحود والعقوق

وإليك شاهداً من مقالك بجريدة البلاغ فى مساء هذا اليوم « ١٨ ـ ٧ ـ ٤٣ »

فى كلامك عن « قصة الأدب فى العالم » أثنيت على رأى المؤلفين الفاضلين أحمد أمين وزكي نجيب حين قررا أن عمر بن أبى ربيعة لم يقتصر على معشوقة واحدة ، وإنما تبع الحسنَ أنّى كان ، بخلاف ما كان عليه أمثال قيس وكثيّر وجميل — ثم تحمست للأمانة الأدبية والتاريخية فقلت :

« وهذا تفريق سَبق إليه العقاد فى كتابه ( شاعر الغزل ) وقد بسطه بسطاً وافياً وتوسع فى بيانه . ولست أقول إن المؤلفين الفاضلين أخذا هـذا التفريق عنه ، فليس ما يمنع أن يتنبها إليه ، ولكنى أقول إن الأستاذ العقاد سبقهما إليه ، فمن الإنصاف أن يُذكر له فضل السبق ويُسجَّل »

٢١٠٥

وهذه حماسة مشكورة ، وهى من بعض صفاتك الطيبات ، ومن الواجب أن نتلقاها بالترحيب ، ولكن هذه الحماسة نفسها تقابَل بالإنكار حين تصدُر عنى ، كأن أقول فى الرد عليك إن أول من سجل هذا الرأى فى كتاب طبع ثلاث مرات هو المبارك لا العقاد

إن كتاب « حب ابن أبى ربيعة وشعره » طبع أول مرة أوائل سنة ١٩١٩ ، وهذا الرأى مدوّن فى أول طبعة ، فهل تكره أن أثنى على نفسى فأقول إنى سبقت العقاد إليه بأكثر من ثلاثة وعشرين عاما ؟

وما أقول إنى كنت فى بالك حين سجلت للعقاد ذلك السبق ، فمن المحتمل أن يغيب عنك أنى أول من أصدر كتاباً عن شاعر الغزل ، وأن كتابى كان المنار لكل من تحدثوا عن ذلك الشاعر الفنان .

وأنا فى الواقع أتعجب من استهانة الباحثين بالأمانة العلمية فى هـذا العهد ، فما يمرّ أسبوع بدون مفاجآت غريبة تتمثل فى سرقات جريئة من مؤلفاتى ومقالاتى ، وأنا مع هذا أسكت لئلا يقال إنى أكثر من الحديث عن نفسى !

وإصرارك وإصرار صديقك على أن هذا من عيوبى لن يصدنى أبداً عن النص الصريح بأن خلائق كثيرة تنتهب آرائى علانية وتعيش بها عيش السعداء

هل تذكر ما قال بعض الناس حين جازيت العقاد قتالاً بقتال ؟

قالوا إننى أثنيت على العقاد من قبل ، فكيف أهدم ما بنيت بالأمس ؟

والاعتراض صحيح ، ولكن المعترضين غفلوا عن أسباب ذلك الثناء ، فقد أردت أن أشرح لطلبة السنة التوجيهية عناصر الكتب المقررة لمسابقة الأدب العربى ، وعند ذلك تذكرت أنى مدرس يعلّم تلاميذ ، ومن واجب المدرس أن ينزه أحكامه عن الأهواء

وأثنى على نفسى فأقول إن تلك الدراسات نفعت المتسابقين أجزل النفع ، وقد شكا الدكتور عبد الوهاب عزام والأستاذ ابراهيم مصطفى من تأثير تلك الدراسات فى عقول الطلاب ،

وقالا فى دعاية إنهما سيرجوان وزير المعارف أن يشير بأن لا تعاد تلك الدراسات فى مجلة الرسالة ، بعد أن ظهر أنها تُكثر من عدد القائلين !

بهذا الصدق فى الأحكام الأدبية أنصفت نحو عشرين باحثاً من رجال هذا الجيل ، وفيهم خصوم ألدّاء يَشرقون بريقهم حين يسمعون اسمى

فأين من يملك من الصدق بعض الذى أملك ؟

المازنى وحده يستطيع أن يجازينى صدقاً بصدق ، فقد وقف بجانبى وقفة كريمة ، يوم قال الدكتور طه على صفحات الرسالة إن كتاب النثر الفنى كتاب من الكتب أخرجه كاتب من الكتّاب

ولكن هل يستطيع الأستاذ المازنى أن ينصف خصومه كما أنصف أعدائى ؟

لقد يئست من إنصاف الناس ، فكيف لا أنصف نفسى ؟

فى كتاب « ملامح المجتمع العراق » ثناء على الأستاذ المازنى والأستاذ الزيات ، فهل قدمت نسخة من هذا الكتاب إلى أحد هذين الرجلين ؟

عزّ علىّ أن أظهر بمظهر من يمن على الصديق ، واستغنيت عن تقريظ الرسالة وتقريظ البلاغ ، اكتفاء بما أثنيت به على نفسى فى مقدمة الكتاب !

وأعجب العجب أنى أهديت كتابى إلى رجل لا ينتظر منى أى معروف ، ولا أنتظر منه أى جزاء ، ليكون فى عملى شيء لوجه الله ولوجه الوطنية ، وهو رجل سبقنا جميعاً إلى التشرف بخدمة العلم فى العراق ، ولم يحفظ له مواطنوه بعض ما حفظ له العراقيون

وأنا بعد هذا أسأل من يُؤذيهم ثنائى على نفسى ، أسألهم متى يجاهدون فى الأدب كما أجاهد ؟ ومتى يعانون فى سبيل الأدب ما أعانى ؟

أين الزميل الذى يقول إنه أحرص منى على الوفاء بحقوق القلم البليغ ؟

وأين الشخص الذى يملك الزعم بأنه نفسى ؟ ومن هو المخلوق الذى يتوهم أن له ديناً فى عنقى ؟ ومن هو الروح الطاهر الذى يطمع فى السيطرة على شيطانية روحى ؟

كانت الغاية عندى أن أقيم الدليل على أن لوطنى وجودية تحميه من الأباطيل ، وكانت حياتى شاهداً على صحة ما ابتغيت ، فما استطاعت قوة أن تهدمنى ، ولا جاز فى وهم مخلوق أن يرانى من أتباعه ، ولو كان أعظم العظماء

أنا أخاطب رجلاً هو الأستاذ المازنى ، أخاطب رجلاً يسره أن يعلم أنى أسيطر على شآبيب من الدواهى المواحق ، وسأصبها على أعدائى حين أشاء

إن أدبى من صُنع الله ، وثقة الجمهور بأدبى من فضل الله ، ولن أرتاب لحظة فى أنى أول كاتب وأول مؤلف وأول شاعر فى هذا الزمان

هاتوا برهانكم يا خصومى إن كنتم صادقين !

هاتوا برهانكم ، هاتوه ، إن استطعتم الاعتصام بخيوط الأحلام

أنا أثنى على نفسى ؟ ؟

هو ذلك ، لأنى أسهر الليل فى مسامرة قلمى ، ولأنى أومن بأن الاعتماد على الماضى هو ثروة السفهاء من الوارثين

سنلتقى غداً وبعد غد ، وسيكون صرير الأقلام أخطر من قعقعة السيوف

وإلى اللقاء ، ولعله قريب !

زكى مبارك


مجلس مديرية الغربية

الإدارة الهندسية القروية

تقبل العطاءات مصحوبة بتأمين ابتدائى قدره اثنين فى المائة لغاية ظهر يوم الخميس ١٢ أغسطس سنة ١٩٤٣ عن توريد ودق آبار ارتوازية بنواحى أبيار مركز كفر الزيات ـ والراهبين مركز سمنود ـ والشين مركز طنطا

وتطلب الشروط من إدارة المجلس على عرضحال دمغة نظير دفع مائتى مليم ٨٧٦